

وخلاصة ما ذكرته أن رجلا يدعى
بيير فالري ، وكان مستخدماً لدى
شركة البترول ، نزل من للقطار
الذي يخرج من محطة سان لازار
في الساعة ٢٠ والدقيقة ٢ قاصداً
بوا كولومب التي يصلها في الساعة
٢٠ والدقيقة ١١ ، وقصد في الحال

مدير المحطة وأخبره أن في عربة القطار التي كان
فيها ، رجلا قتل نفسه أمامه برصاصة وجهها إلى قلبه ،
وكان الرجلان وحيدين لاثالث لهما ، ولم يسمع من
في العربات المجاورة شيئاً .

وبدا لمدير المحطة أن إيضاحات هذا الشاهد
الوحيد مختلفة ، ووافقته في اجتهاده هذا الشرطي
الذي دعاه في الحال ، فقرر إبقائه وحجزه ، بعد
أخذ اسمه وعنوانه .

كانت سممة بيير فالري حسنة في بوا كولومب ،
وكان محترماً بين مواطنيه ، وعلى الأخص في هذا
الطريق ، إذ كان يركب للقطار كل صباح من باريز ،
ويعود إليها مساء به ، ولكن الاتهامات القوية وجهت
إليه منذ يوم القبض عليه ، واكتشفت مأساة حقيقية
كاملة أفضت مضجعه : هجرته أسرته في العام السابق
لتعيش — في شارع مجاور لشارعه — مع فيرناند
بوبري هذا الذي مات تلك الموتة المحزنة الفاجعة ،
والذي كان صديقاً حميلاً للعائلة . وبقى بيير فالري قاطناً

في مسكنه مع ابنة له صغيرة لم تبلغ ثمانية أعوام من
عمرها ، وكانت أمها تأتي كل صباح لتراها وتمود
ثانية بانتظام ودقة ، فارتبطت البنات بأمها وعشيق
أمها برباط ممنوى وثيق . ولا ريب أن الأب مل هذه
الحياة غير الطبيعية ، ووجد نفسه في القطار وجهاً

مَكْرِ الْفَرْجِ الْحَبِيبِ

للكاتب هنري بوردو عضو المجمع العلمي الفرنسي
بِقَلَمِ الْأَسْتَاذِ نَاجِحِ الطَّنْطَاوِي

خاطب مسيو هير ، قاضي تحقيق الجنايات
كاتبه مسيو موتون قائلاً :

— ماذا تقول ؟ أ جريمة عاطفية أخرى ؟
— ألا فليعلموا أن زمن الصفع والمفوق قد انقضى .
وها إن القضية — وخاصة في برتانية الكبرى —
بدأوا يحكمون على المحبين القاتلين بالموت شنقاً ،
لن يبقى لدينا شيء اسمه جريمة عاطفية . هل أنت
مستعد ؟ إنني سأسر بادخال التهم ، ولكن قل لي
هل وكل محامياً ؟

— نعم ياسيدي القاضي .

— لا خير ، إننا نستطيع استجوابه بهدوء ،
لأن هؤلاء السادة الذين يحامون ويدافعون يعقدون
الاستجوابات بصورة رهيبة .

— إن التهم ياسيدي ، يدعى أنه ليس جانباً .

— شيء طبيعى ، وماذا تنتظر منه غير ذلك ؟

— ويؤكد أيضاً أن القضية هي انتحار

ولست بجريمة .

— انتحار ؟ فكر قليلاً ، إن العمل الطبيعى

والشاهد دائماً هو أن الزوج يقتل الماشق ، فكيف

نصدق أن الماشق هو الذى قتل نفسه وبحضور

الزوج أيضاً ؟ لقد شغل هذا الخبر التريب الصحافة ،

وأنت على وصفه وتسجيله تحت عناوين ضخمة ،

— آه ياسيدى القاضى ، ما جدوى ذلك ؟
إنك ان تصدقنى ، وأنا لا يسوؤنى أن أدان
— إن كنت بريثا كما تدعى ، فإن إدانتك تسوؤك
كثيراً ، وإن كنت جانباً أمكن أن يكون فى جنباتك
ظروف مخففة

ولما سمعت ولم يجب أردف للقاضى قائلاً :

— وإن لك مع ذلك ابنة ، فإن كنت بريثا
لا ترضى أبداً أن تترك لها اسماً ملوثاً مطلقاً
فتتم التهم قائلاً :
— آه لم أفكر فى هذا

وكان هذا الجواب وحده حافزاً للقاضى لأن
يلاحظ أمارات الوجه للبائس الخذول ، واعتقد أنه
ليس بمحضرة مجرم . وأبدى للقاضى الذى قضى حياته
فى هذا العمل حتى أصبح محنكا فى تحقيق الجرائم
مهارة فى ملاحظة الملامح ، وقراءة الدلائل الوجهية
والجسمية ، وعاود الكرة بلطف ورقة :

— نكلم بلا خوف ولا غضب ، وهانحن ذان
مصفيان لك

— سأنكلم ياسيدى إذا كنت تمدنى أن ...
وبدت من للقاضى حركة اعتراض . إنه لا يستطيع
أن يتكفل بشئ ولا أن يرتبط بوعده مع منهم
— ... ألا تدبى شيئاً مما أحدثك به ،
وألأكتب منه شيئاً ، وإن لم تقبل ذلك فلن أنكلم
— إنك تعلم جيداً أن حادثتك يجب أن تسجل
وأن من واجبي أن أعرف تفاصيلها إن كان فى الأمر
جريمة ، أما إذا كانت القضية انتحاراً كما تدعى
فسيكون اعترافك مقبولاً ولن يصدر أى حكم عليك
وكل ما فى الأمر أننا يجب أن نطمئن وجداننا
اطمئناناً مطلقاً

لوجه أمام عاشق امرأته بطريق الصدفة ، عائدآ فى
ذلك المساء إلى باريز ولم يركب للقطار الذى كان من
عادته أن يركبه . لقد كان مصمماً على الانتقام حتى
اللحظة الأخيرة . ولقد ثبت أن المسدس الذى وجد
عند قدمى الضحية كان ملكاً له ، وسلم نفسه دون
أن يبدى مقاومة

ورجاً أن تؤخذ ابنته إلى أمها أثناء غيابه بقلة
اكتراث ظاهرة ، وكان يردد فى هذه الأثناء بصوت
هادئ : إن هذه القضية انتحار وليست بجريمة ،
ولكن لم يبد عليه أنه مقتنع بهذا الادعاء الخيالي ...
ودعى للمثول أمام قاضى تحقيق الجنايات

رأى القاضى أمامه رجلاً صغيراً متواضعاً ،
ذابل للنضارة ، لا يتجاوز الأربعين من سنى حياته
ذابرة وهيئة تدعوان إلى الاتهام ، ولم يك فى وجهه
غضون مميزة ، بل كانت تبدو عليه أمارات الكآبة
والحزن ، وكانت عيناه غائرتين ذابلتين ، تشبهان عيني
الجدى الذى ينتظر طلقة البندقية مودية بحياته

قد يكون من الممكن أن يقال إن أمارات الحزن
هذه قد ولدها فزع من القضاء وأله للنفسى الذى
كان يكابده ، لو لم تكن متلائمة مع طبيعة وجهه ،
ولكن ظهر للقاضى أن هذه الأمارات طبيعية فى
وجهه لا يمكن أن تزول منه ، وأيد اعتقاده هذا أن
التهم كان يجيب على الأسئلة الأولى بكلمتى نعم أو لا
بانفعال وتيسج ، ولقد أقر للقاضى بكل الأمور التى
سأله عنها : الحياة وهجر امرأته ، واقتسام الطفلة ،
وامتلاك المسدس ... ولكنه بمد هذا كله أنكر
الجريمة !

فلم يتالك القاضى نفسه أن صاح به :

— إذن هل لك أن تقص علينا كيف كان الأمر

القاضي والكاتب اللذين كانا يتبادلان من حين لآخر نظرات مقرونة بالكاء، وكان الاصغاء إليه يشجعه. كان يشكلم كأنه جالس وحده يناجي نفسه أو كأنه يرفع ستور الماضي أمام ناظره، وكان يقاطعه أحياناً قاضي التحقيق عند ما يمن كثيراً في التفاصيل

— أجل يا سيدي القاضي، لقد كنا مسرورين نحن الثلاثة جداً

— أنتم الثلاثة؟

— نعم اسرأتى وأنا وهذا المدعو فرناند بوبري. كانت اسرأتى بائمة ورود، وكنت أسراً أمام دكانها كل يوم في طريقى إلى المحطة. وفي كل سبت كنت أشتري لها وردة أو قرنفلة أو باقة صغيرة من البنفسج أو غيره حسب الفصول، ولكنى لن أطيل في هذا تركت دكانها وبقيت في الدار تقوم بالأعمال المنزلية، وكنت أعمل دائماً لأستطيع أن أقوم بأودها وأود ابنتنا الصغيرة. وكان فرناند رفيقى وصديقى يعمل في شركة الكهرباء بينما كنت أعمل أنا في شركة البترول. كان أكثر ثقافة منى وقد جاب بعض البلاد وزارها، وكان ذا منطق عذب، وكثيراً ما كان يتناول طعام الغداء عندى، وكان بلاطف وبداعب جنيفيف الصغيرة. لم تكن اسرأتى في بادى الأمر تنظر إليه بارتياح، وكانت ترى أن صداقتى أوثق مما يجب أن تكون، ثم أصبحت بعد حين تمتدل في حكمها عليه وتلين، وكنا متفاهمين تماماً. وفي بعض أيام الأحاد كان يخرج بنا إلى الربف للزهة. وفي بعضها الآخر كنا نبقى في الدار ننسى بلعب الورق شتاء وبالكرة صيفاً ولم نكن نذهب إلى المقهى

لم يكن بداخلنى الشك في أمر زوجتى إذ كنت

وإذا كانت القضية خلاف ما تدعى، وتضافرت الأدلة على ذلك، تصبح حادثتك مرافعات وترسل إلى محكمة الجنايات الفاصلة، وهناك ستسأل بحضور السادة المحلفين من قبل رئيس المحكمة، وحتى آخر لحظة يسمح لك بإعادة إيضاحاتك، والإيضاحات التى تفوه بها يوم الجلسة الكبرى هى وحدها التى تعتمد عليها المحكمة. هذا كل ما أستطيع أن أقوله لك وأنت تدرك ولا شك الفائدة الكبرى التى تسديها لنا بتخليصنا من إتمام العمل بدقة ونصب

كان التهم بصنى بصموبة وارتيك إلى هذه المحاضرة التى ألقىت عليه بصوت عذب تبدو فيه الرأفة والشفقة. وكان الشيء الوحيد الذى كدر صفو نفسه ومس شفاف قلبه هو التفكير في مستقبل ابنته، وقاض هذا التفكير على لسانه إذ قال في نفسه:

— من أجلها، نعم من أجلها!

— من أجلها؟ من هى؟

— من أجل جنيفيف

— جنيفيف؟

— ابنتى. إنها ضعيفة لا تحتمل للضرب ولا تستحقه. أما أنا فقد ربيت على الجلد. وهذه الأشياء التى يسمونها الحياة والموت لا نهمنى كثيراً. ينبغى أن أفكر في مستقبل ابنتى، وأرى من الواجب أن تتمكن من الزواج برجل شريف لا يثلم شرف أبها ولا سيرته.

وقال بعد فترة صمت قصيرة: ولا سيرة أمها أيضاً

— هلم إذن ونكلم من أجلها

وبدأ التهم يسرد قصته مضطرباً متلماً، ثم ما لبث أن تشجع وأصبح إلقاءه سهلاً هادئاً. كان يبدو عليه أنه لا يعير أدنى التفات إلى مستمعيه:

لديه دائماً كلام يقوله أكثر مني . كان يضع رباطات عنق جميلة زاهية ، وكان في وجهه عينان تشكلمان ، أما أماطياً فلم أكن إلا إيلي . إن الذي كنت أفضله به كان معنى لا يرى ، كنت أفضله بالشعور والاحساس ، وليس لدى اتهام أوجهه إليه

— ليس لديك اتهام ؟ لقد فضحتنا أننا الاثنان — بالرغم منا يا سيدي ودون أن نريد . لم أعرف صديقاً ورفيقاً أخلص من فرناند ، إنه كان على استمداد لالقاء نفسه بالنار في سبيل ، وكلما وقعت في ضيق كان ينقذني ويخلصني منه . ولما كنت مصاباً بالحنان ، قبل زواجي ، مصاباً لدرجة الموت ، كان يسهر على ولا يخاف من المدوى . أوه لقد كنت واثقاً أنه لم يكن يريد أن يتعبني ويؤلني ، والدليل على ذلك أنه مات .

وسكت للمرة الثانية . . ثم تابع حديثه دون أن ينبه لوجوب متابعتها :

— ولكن ، لقد لحقني منه قليل من التعب . لقد بدأت أشك في بعض الأشياء . لم تكن امرأتى المسكينة متادة على الكذب ، ولما كانت تبيع ورودها ، كان الناس يروون لها قصصاً واقعية مسلية فكانت تضحك دون أن تبدي لها اهتماماً . لقد عرفت سريعاً أنني لست كسائر الرجال ، فلم تكن تضحك لي أبداً ، كانت تبدو محزنة عندما كنت أفق أمام دكانها . لقد كانت فتاة عاقلة ومفكرة ، وبعد زواجنا كانت مؤنسة لي ، تضحك معي وتنفي أثناء قيامها بالأعمال المنزلية ، وكنت أسمع غنائها عندما أعود من عملي ، فكانت تؤثر في قلبي نار الحب ، ولكنها بعد حين لم تمد تنني قط ، فسألها عن سبب ذلك فأجابتنى قائلة : « لا أدري » .

واثقاً من حسن سلوكها ، وهي نفسها لم تكن تشك في ذلك . إنني لا أنهما يا سيدي القاضي ولا أنهمه أيضاً . كانت هنالك أشياء تحدث بالرغم منا لم تكن نرضاها ولا نريدها ، كانت هذه الأشياء تمر وتلو بمضغها بعضاً ، وكان مرورها يحدث في حياتنا تبديلاً أشبه ما يكون بالاهتزاز الأرضي البطيء

— ولكن ما هي هذه الأشياء التي حدثت ؟ — لم يكن بيني وبين امرأتى خلاف ولا شجار . كانت تمانقني مودعة كل صباح عندما أم بالذهاب ، وكل مساء عندما أعود إلى الدار ، آسفة صباحاً ، مبتهجة مساء ، ولم يكن ذلك مهزلة مقصودة . إذ نكن نشعر بحاجة لأن نتبادل كلمات المودة ، إذ كانت المودة متأصلة في أعماق نفسينا ، وكنا نشعر بها دون أن نظهرها ، ثم كانت هنالك البنت الصغيرة التي تربطنا وتجمع بيننا .

لم يكن للبنت إلا الأب والأم ، وكان يجب أن نفكر فيها دائماً ، ولكننا كنا نطوى نفسينا على أفكار وآمال أخرى ، والنساء على ما يبدو لي يضمنون آمالاً وأحلاماً أكثر من الرجال . أما خاصة لم أكن أحلم أبداً ، ولم أكن أعني شيئاً ، ولم أكن أفكر في شيء ، إذ كان تفكيري منصرفاً إلى زوجتي وابنتي وهو هو تفكيري في نفسي ، إذ كانا جزءاً مني . وأنها تدرك ذلك بالطبع

ثم سكت كأن جلته الأخيرة أغرقته في خضم الأفكار

فسأله القاضي قائلاً :

— ثم ماذا ؟

— قلت لك إنه كان ذا منطق حلو عذب ، وكان يتقن التعبير عن مشاعره أكثر مني ، وكان

فأبدى الكاتب حركة اعتراض وشك في صحة القصة ، ولكن التهم لم يمر اعتراضه أذنًا صاغية وأنتم حديثه :

— لقد حاولنا أن يخنلنا ، ولم يكن هذا بالصعب كثيرًا ، إذ أنني كنت أذهب إلى عمل كل يوم ، ولم يكن فرناند مقيداً بالعمل مثلي فلقد كان يصلح هنا وهناك بعض الآلات الكهربائية ، كان يذهب إلى باريس وبعض نواحيها ويمود منها . إنه لمن الخفيف أن يصبح المرء غيوراً . طاملاً حاولت أن أعلم شيئاً من أسرها ولكني لم أستطع ذلك ويا للأسف واكتفيت بالتصور والتخيل . كنت أستيقظ في جوف الليل أحياناً ، وأصنئ لغيري أسرائي . ويلاه أ كانت تسمع ما أفكر فيه وهي في نوم ؟ لقد كانت تحسب لظن جاء وتأخذ بيدي وتسالني قائلة : « ماذا بك يا صاحبي ؟ » فكنت أجبها كما كانت تجيبني من قبل قائلاً : « أنا ؟ لا شيء » أو أقول مثلها : « لا أدري » وعدت للدار في إحدى الأيام ، فوجدت زوجتي حزينة ، ولما اقتربت منها رأيتها غارقة في التفكير لدرجة أنها لم تشعر بوجودي فوضعت يدي على منكبي وقالت لها : « فيم تفكرين ؟ » فأجابت : « أنا ؟ لا شيء » وعاجلتها بقولي : « إنك تفكرين فيه أليس كذلك ؟ » فما كان منها إلا أن صعدت زفرة حارة ولم تجب ، وقالت لها وأنا أم أن احتوبها بين ذراعي : « إني سأحملك يا عزيزتي ، إنه لن يمود قط ، وسيعرف كل شيء » فقالت ببساطة : « لقد تأخرت كثيراً » ولم أكد أسمع هذا الجواب حتى عرفت كل شيء ، وتركت ذراعي تهبطان بتراخ ولم أضربها ولم أطردها . فما راعني إلا أن رأيتها ترتدى ثيابها وتهم بفتح الباب فسألتها : « إلى أين

وظننت إذ ذاك أن ما أسكتها هو عدم ولادة طفل آخر لنا ، ولكني كنت مخطئاً في هذا الظن إذ ظهر لي أنها كانت تحتشم عندما كان يزورنا فرناند ، وكانت تبدو عليها أمامه كل أمارات الانقباض والسرور فذكرت حالها وهيئتها عند ابتداء معرفتي لها ، وأفرغني الشبه بين الحالين ، وبدأت أتمذب وأنا لم هل كانت تحب سواي ؟ أ كانت تحب صديقي الذي يوشك أن يكون أخي ؟ لقد صممت على طرد هذه الفكرة من رأسي ، إذ وجدتها غيفة وفظيمة . إن اتهاى لها معناه شتمهما وإهانتهما . كلاهما كان عزيزاً عليّ أثيراً لذي ، أما هي فن أجل وأجل طفتنا ودارنا وحياتنا خارج الدار ، من أجل التماون وتبادل الثقة ... ولكن لا ، لم يكن هذا فظيماً كما تصورت ، وما أرى هل نحن دائماً مصادر أعمالنا وأصحابها الحقيقةيون ؟

— أما في الأفكار فاستطيع أن أجيبك بالنفي إذ لا نستطيع أن نمنع أنفسنا من الاعتقاد بأن بعض الناس مخطئون حتى القضاة أنفسهم ، أما في الأفعال فليس الأمر كذلك ، إذ نحن دائماً أصحاب أفعالنا والمسئولون عنها

— دائماً ؟ هل نحن نراقب أنفسنا في كل حين يا سيدي القاضي ؟ إننا لا نرى غيرنا إلا عند ما نريد أن نراه ، إذن نحن ننسى أحياناً . إننا لا نرى إلا ما نحب ، ويختفي ما وراء ذلك عن أبصارنا ، يختفي عنها كل ما يضايقنا ويؤلنا ، ولذا فقد خفيت عن أعينهما كأنني لم أكن موجوداً . إنهما لم يفكرا في وجودي ولم يثنيا له إلا بمد لآي ، ولقد أخطأ في تنبهما إذ جلبا لنفسيهما الضيق والألم ، لأن عذاب الذي ولداه لي كان في الحقيقة عذاباً لها

بعد . كنت لا أزال أركب القطار في الذهاب والاياب ، ولكن لم تمد لي عزيمة ورغبة في العمل . كنت أعمل كآلة الصماء . وفي المساء كنت أرى جنفيف الصغيرة وكنت أستطيع أن أدلها وأفرحها بفضل أجرتي التي كنت أأهلها من عملي . لقد كانت لبقة في أحاديثها معي وتتضابق أحياناً لحديثي . أظن أن الأطفال عقلاء أكثر مما نعتقد يا سيدي القاضي . إنها لم تكن تجرؤ على أن تحدثني عما فعلته في يومها سوى دروسها وواجباتها . لقد كانت تعتقد أنها لا يجدر بها أن تذكر أمها ولا الرجل الآخر أبداً . ولكنها مع ذلك سألتني قائلة : أمن الممكن أن يكون للمرأة والديتان ؟ ثم أجابت من تلقاء نفسها : أما أنا ، فأظن ذلك غير ممكن

لقد كان لها أيضاً أب هنا وأب هناك ، أب في النهار وأب في الليل ، ولكن لم يكن لها ، ولن يمكن أن يكون ، إلا أم واحدة . ومنذ تلك اللحظة أصبحت لا أفكر إلا في الانتحار لأترك السكان فارغاً للرجل الآخر . لم أستطع إرجاع البنت لأمها ، أما كان يجب علي أن أردّها إليها ؟

— كان باستطاعتك أن تطالب امتلاك البنت وإبقائها عندك ، مع بضع زيارات تقوم بها الأم في أيام محددة معينة

— صدقت يا سيدي القاضي . هذا هو للعمل الذي لم أكن أستطيع القيام به . لم أكن أريد ذلك لزوجتي ولا لصديقي ، لقد كنت المجرم الأول . لا ينبغي أن نسي إلى أحد ، وخاصة إلى المرأة الفاضلة . لم أكن أعلم يومئذ أن كلا منهما يلوم الآخر ويخطئه . إن الرجال يمتقدون دائماً أن نساءهم بأجمعهم لم . أما النساء — وما أخالك تعرفهن جيداً — فانهن

تذهبن ؟ « فأجابني : « إلى أين تريد أن أذهب ؟ » فقلت : « إليه » فهزت رأسها وقالت : « نعم إليه » فقلت : « حسن ، إذهي »

ولما بلغت عتبة الباب التفتت وقالت بهدوء : « وجنفيف ؟ » فقلت : « كان يجب أن تفكرى فيها من قبل » قالت : « هل تريد أن تحتفظ بها ؟ » قلت : « إنها لي » قالت : « ولكنها لا تزال صغيرة » قلت : « ستعتاد الحياة بمجانبي » قالت : « هل تدعى أراها ؟ » قلت : « كلا » فرفعت يديها كالبنائسة ، ثم خرجت باكية ولم أرها بعد ذلك الحين

— وابنتك ؟ هل كانت تراها ؟

— كانت جنفيف تذكرها ، فكنت أقول لها إن أمها سافرت في رحلة طويلة ، وكنت مضطراً لأن أقول لها إنها ستعود . ولما كنت أذهب إلى المصنع طول النهار ، عهدت بها إلى امرأة كانت تدير مدرسة داخلية في بوا كولومب ، ولكن الصغيرة كانت تماند وترفض أن تبقى هناك ، وعلمت بعدئذ أن أمها كانت تأخذها كل صباح بعد ذهابي وتمييدها كل مساء قبل عودتي . لقد عرفت ذلك ولكنني لم أقل شيئاً . ماذا تريدني أن أفعل يا سيدي القاضي ؟ ماذا تريد ؟

فصدرت من القاضي وكتبه حركة ظاهرها الاستحسان والنصوب ، ولعلهما كانا يقصدان بها موافقة التهم مؤقتاً ليستطيع أن يتم حديثه ويتكلم عن الجريمة التي هي بيت القصيد . وصمت بيير فالري كأنه تعب . فسأله القاضي :

— منذ كم هجرتك امرأتك ؟

— منذ عام على ما أذكر ، ولكن هذه المدة

كانت تبدو لي كأنها عشرة أعوام . لم يتبدل شيء

في الحرب كسائر الناس. إن الرء يكون أكثر شجاعة عند ما يرى نفسه محاطاً بأصدقائه ، وأنا وحدي في داري لم أكن أستطيع الدزم على الانتحار ، ولقد كنت متألماً جداً لعدم إرادتي الحياة . لقد كان كل شيء يسير في نظري على ما يرام ، جرمين ...

— جرمين ؟

— أجل ، جرمين امرأتى تزوجت فرناند ، واستطاع أن يعيش في وضح للنهار مع جنيفيف ، وعندئذ أصبح للصغيرة أب وأم ، أما الأب الآخر فقد اختفى ، وأظنها نسيته ولم تعد تفكر فيه . لقد كان أباً حزيناً لا يصلح لشيء . كنت أحدث نفسي بهذا كله ومع ذلك فلم أعزم على شيء .

— إذن ما دمت لم تستطع أن توجه سلاحك نحو جسمك ، فقد وجهته نحو خصمك .

— مهلاً ياسيدي القاضي . نعم كان يجب علي أن أقتل نفسي ، وهكذا تخلصت من العذاب الأليم .

— قد بلغنا إذن اليوم للفاصل .

— أجل بلغناه ياسيدي القاضي . كان يمر فرناند عادتي وواجبات عملي وقطاري للصباح والمساء اللذين كنت أركبهما . ولقد نظم حياته على خلاف هذا الشكل فكان يتجنب مقابلي ما وسه التجنب ، ولم أصادفه في الطريق أبداً ، لا في بوا كولومب ولا في باريز . لقد كنت واثقاً من أنه لم يكن بالناقل أبداً عن الأمر الذي عزمته عليه . وفي مساء اليوم الذي وقع فيه الحادث ، أجبرت على البقاء في المصنع بعد انتهاء وقت عملي لثياب أحد رفاقي ووجوب بقائي في المعمل عوضاً عنه ، وهكذا امتد عملي ساعتين أخريين ، واضطرت لركوب قطار الساعة ٨ والدقيقة ٢ الذي

يملكن من المطف والحنان ما لا مزيد عليه ويظهرن ذلك لك كل يوم ، ولكنهن ينسيه عند ما يتزوجن . لقد تأملت لها كثيراً وتأملت له أيضاً . لقد كنت أعجب به طويلاً . لقد كان في نظري مخلوقاً سامياً سلبني أعز ما أملك وسحق بذلك العمل قلبي

— لقد كنت تنفته ، هذا واضح

— آه ، كلا ياسيدي القاضي

— ألم تكن تبغضه ؟ ألم تكن تريد أن تنفقه لنفسك ؟

— آه ، كلا . أنتقم ؟ هل كان يجب الانتقام ؟ لم يرد هو ، ولم ترد هي ، أن يحصل ما حصل . لقد تحابا ، هذا كل ما في الأمر . وكنت أنا واثقاً من أنهما يرثيان لي ويتألمان من أجلي . فلم يبق لي إذذاك إلا دواء واحد ممكن ، ألا وهو الموت

— ولذلك صدمت على اقتراف الجريمة

— الجريمة ؟ أية جريمة ؟ الموت ؟ لقد كنت مجرمًا ولا ريب بتفضيلي الموت ، ولهذا الفرض اشتريت المسدس

فتبادل القاضي وكتبه النظرات ، وقال له الكاتب بصوت خافت : ألا يجب التسجيل الآن ؟ فأجابه القاضي قائلاً : دعه يتم كلامه . إذا رأنا نضطرب ، توقف ولم يتكلم . وسأستجوبه عند ما ينتهي من سرد قصته . ثم قال بصوت مرتفع :

— إذن اشتريت المسدس الذي يفيدك في اقتراف الجريمة

— اشتريته ياسيدي القاضي . لم يكن من السهل على تصور الموت . إن توجيه الرء الرصاص نحو صدره يتطلب كثيراً من الشجاعة ، ولم أكن مع الأسف وافر للشجاعة إلى هذا الحد ، رغم أنني اشتريت

لم يكن من عادتي ركوبه وفي اللحظة الأخيرة التي سبقت سير القطار ، دخل رجل العربية التي كنت فيها وحدي . لقد كان هو بعينه . وقف واجماً بهوتاً لما وقع بصره على ، ولم يجرؤ على الجلوس ولا على الحركة .

سار القطار ووجدت للفرصة سانحة للتخلص من حياتي ، فنهضت من مكاني متجهاً نحو النافذة واقتربت منه وأخرجت المسدس من جيبى ورأيتي مقبلاً نحوه فالزم للباب ولم يبد حراكاً ، ولم يخفه سلاحى . ترى هل كان يعلم أنني لم أرد قتله ؟ قلت له غاطباً :

— لقد جلبت لى كثيراً من الألم والشقاء ، أنوسل إليك أن تريحنى . إن الكلاب التي تموى كثيراً تراح من حياتها ومددت إليه يدي بالمسدس ، فأخذه وتأمله هنيهة ، ثم ... فجأة ... وجه الفوهة نحو قلبه وأطلق للنار ...

يا الهى ، ماذا فعل ؟ لقد أدان نفسه وحكم عليها ياسيدى القاضى . ولكن أنا ، أقسم لك ، لم أفكر فى أن أحكم عليه . لم أكن أشعر بيهض له كما ذكرت لقد كنت بانساً شقياً ، إننى لم أنهمهما ياسيدى للقاضى ، ولم تكن تلك غلطتهما بل غلطة مشاعرهما التي قادتهما برغمهما

كنت جائئاً أمامه ، وتناولت بذراعى جسمه الحار ، وكان الدم يسيل منه ببطء ، ومع ذلك فإن عروقه لم تكن تنبض قط . لقد مات . كانت عيناه مفتوحتين وكان ينظر إلى بهما بألم وحزن . لقد كنا متعابين كثيراً . كنا صديقين وزميلين وأخوين لم أكن أذكر نفسى إلا من خلال حبنا . لقد بكيت

إذ ذاك كالطفل . آه ، لو كنت أوفر شجاعة ، أنا الذى كان يجب أن يموت لاهو ، كان يجب أن يجبا ويسعد فى حياته ، دون أن آخذ منه أو أعطيه شيئاً فتبادل القاضى وكتبته النظرات . لقد طمان الحادث نفسيهما . لم يكونا يستطيعان أن يشمرا بأقل ريب فى صحة الرواية . إن ظروف انتحار فرناند وأسبابه كانت واضحة لا تدع مكاناً لافتراض وقوع جريمة ، ولقد نجح بيير فالرى بلا ريب وأصبح حراً قال له القاضى بصوت متزن واضح :

— لقد عدل صدقك ، كان يجب عليه أن يحترم صداقتك . والآن لم يبق على إلا أن أطلقك . ثم قال مردفاً :

— انظر ، لن يطول الأمد . لدينا بعض الاجراءات القانونية التي لا بد من القيام بها وأمر بأن يقاد التهم الذى أصبح شاهداً بديلاً ولما بقى القاضى وحده مع كاتبه ، طلب منه قائمة أسماء الشاهدين الآخر الذين دعوا : رئيس القطار ، مستخدمو القطار ، محافظ بوا كولومب ، وقد أتى بهذا الأخير ليصف سيرة التهم الشخصية ، ثم مدام بيير فالرى . فأمر بأن يسرح كل هؤلاء إذ ظهر له أنه لا يمكن معرفة شيء منهم ، وبأن يؤتى بـ مدام فالرى . فأجابه الكاتب :

— إنها لا تعلم شيئاً عن الحادث

فقال له القاضى :

— أرغب فى رؤيتها

فدعيت المرأة . إننا لا نستطيع فى غالب الأحيان أن نفهم حب غيرنا على حقيقته ، إن أية امرأة محبوبة حتى الجنون أو حتى الجريمة ، تبدولنا خالية من الجمال أو من الظرف . هذه هى حال أكثر

زائرات الحماكم اللواني يبعثن الدهشة في النفوس .
والجواهر المختدة في الحماكم لا تستطيع أن تقف
على سرفتنهن وسحرهن ، ربما استطاع هؤلاء أن
يقفوا على هذا السر إذا تأملوهن جيداً ، ولكن
ليس بينهم من يجد الوقت الكافي لذلك . لم تكن
جرمين جميلة ، كانت صغيرة ، دقيقة الأعضاء ، ذابلة
الوجه ، بلوح أنها لم تتجاوز الثلاثين من عمرها .
كانت منطومة اللامح ، ذات شعر أشقر كامد ، يبدو
عليه شيء من الجمال ، ووجنتين ناعمتين ، وفم صغير
لطيف ، وعينين زرقاوين ساحرتين ، متكرتين
قليلاً لأنهما مفرورتان بماء شفاف ، ولقد كانت
تحاول عبثاً كنم للفزع الذي أصابها وإخفاءه .
ماذا يراد منها ؟ أبة أسئلة ستاتي عليها ؟ إن هذا الرجل
الجالس وراء المنضدة ، تبدو عليه العبوسة والصرامة
والحزم

قال القاضي موضحاً بعد فترة صمت استطاع أن
يسمع فيها ضربات قلب المرأة المسكينة المرتعشة :
سيدتي : هل تعلمين أن زوجك متهم بقتل
حبيبك ؟

فاعرضت المرأة مستعيدة شجاعتها وقالت :

— ليس هذا صحيحاً ؟

— ماذا تقولين إذن ؟

— لو أراد قتلنا لفعل ذلك حينما خرجت
من داره . إنه لا يفكر في الإساءة إلينا ، إنه طيب
القلب جداً

— ولكن طيبة القلب لها حدود تقف عندها

— هذا في غيره ، أما هو فلا . إنه لم يضربني

لما رأى سلوكي . لقد تألم مثلنا ، وتركى أعواد رؤبة

الصغيرة

— لماذا خدعته ؟

قامت بحركة غامضة معناها : هل أعلم ؟

— كيف أغراك هذا المدعو فرناند ؟

— آه سيدى ، إنه لم يغرنى

— ألسنت أنت التي قدمت نفسك إليه ؟

— ولكننى يا سيدى لست امرأة فاسدة ، لقد

كنت دائماً حسنة السيرة ، ولم أنهم قبل زواجى
بشيء

— هل كنت تحبين زوجك ؟

— بلاربيب ، كنت أحبه

ثم أردف القاضي قائلاً بصوت خافت :

— والرجل الآخر ، هل كنت تحبينه أيضاً ؟

فتهدت إذ ذاك وقالت :

— كنت أحبه حتى العبادة

— فأنت ترين جيداً أنه أغراك

— كلا يا سيدى للقاضى ، كنا نعيش معاً .

أقسم لك أنه لم يكن لدى فكرة سيئة . لقد نظر كل

منا إلى الآخر في أحد الأيام . آه لا أدري كيف

أقول . لقد نظر كل منا للآخر ، كأننا لم ير أحدنا

الآخر قبل ذلك اليوم . ونم منذ ذلك اليوم كل شيء .

لقد عرفنا جيداً أننا لن نستطيع المقاومة ، إنه عمل

سهيء ، نحن نعرف ذلك ولكن الحب كان أقوى منا

— وها قد رأيت إلام قادكما ذلك

— لقد قادنا إلى الموت . إننى واثقة من أنه

يتألم من أجل ... من أجل زوجي ، كان يتألم أكثر

منى ، وكنت آمل أن يزول ألمه على سر الزمن ،

والآن قد انتهى كل شيء

— كلا يا سيدتي ، لم ينته كل شيء ، باستطاعتك

الآن تدارك خطئك والتكفير عن ذنبك
فرفمت رأسها المنخفض منتظرة ما يحدث

— نعم ، إنك أم

— جنيفيف

— يجدر بك أن تفكرى فى ابنتك وزوجك
أيضاً ، لماذا لا تسلكين الطريق المؤدية إلى دارك ؟

وتأمل السكائب فى هذه اللحظة ، وجه القاضى
بدهشة منتظراً خاتمة هذه الرواية . وكانت المرأة
صامتة ذاهلة تنظر بمبنيها إلى الأفق البعيد ، وتفكر
فى هذا الاقتراح الجديد الذى سمعته ثم تمتعت قائلة :

— سيطردنى زوجى

— هل أنت واثقة من ذلك ؟ لقد قلت منذ
لحظة إنه طيب للقلب جداً

— آه يا سيدى القاضى ، يفصل بيننا البيت

— إن زوجك لم يقف متفرجاً ، لقد ذرف
عليه الدمع منذ دقيقة لا أكثر

— كان يبكي عليه ؟

— هل تودين معرفة ذلك وللتحقق منه ؟

— آه يا سيدى ، إننى لم أراه منذ اليوم ...

— منذ هجرك إياه ... إننى سأدعوه الآن

— كلا ، كلا ، لا أريد ، يفصل بيننا البيت

— إن البيت يقرب بينك وبين زوجك ، أوكد
لك . لقد قتل نفسه من أجله ، ومن أجل الألم الذى
سببه له

ودعا القاضى المتهم أو بالأحرى الشاهد . فوجد
بيير فالرى نفسه فجأة وجهاً لوجه أمام زوجته ، ولم
يجرؤ أحد الزوجين على الكلام إذ كانا يتبادلان

النظرات بخوف وخجل .
فانبرى القاضى قائلاً :

— بيير فالرى ، إن امرأتك قد ندمت . وإذا
طلبت منك المودة للحياة الزوجية السالفة ، بمد هذا
الحادث المفجع ، فهل تقبل ؟ وهل ترضى بأن
تسامحها وتمنعو عنها ؟

فأجاب المسكين :

— أسامحها ؟ إننى دائماً مسامح لها

— هل تأخذها معك ؟

— نعم ، إذا أرادت

وأردف قائلاً مثلها :

— ولكن بفرق بيننا البيت

فقال القاضى موضحاً :

— أجل ، إنه مات ليصلح بينكما ، ولم يمت
دون مقابل . لقد قلت لها قبل لحظة : فكرى فى الطفلة
التي ليس لها إلا الأب والأم

فتقدم بيير فالرى خطوة للأمام واقترب من
امرأته وقال لها :

— هلى مى

ثم النفث نحو القاضى قائلاً :

— ألسنت متهما ؟

— كلا يا صاحبي ، أنت حر

ولما خرج الرجل والمرأة ، أمسك كل منهما
بيد الآخر ، النفث مسيو هير نحو كاتبه قائلاً :

— لقد اشتغلنا جيداً فى هذا الصباح ، هات

العمل التالى ...

ناجى الطنطاوى

دمشق